الـى (المفكر المجدد) جمال البنا (3-4)

لو عاش حسن البنا عشرين عاماً أخرى لحدث تطور نوعي في فكر الإخوان بما يماثل التطور الذي حدث في العشرين السنة التي عاشها قبل اغتياله عندما تحولت من طريقة صوفية إلى دعوة سلفية عالمية .

للمصلحة الأنانية في أقبح صورها .. إنه يضرب احتكار المعرفة ويكسره ويسمح للمؤمن الحق بالرجوع إلى قلبه .. لذلك أنا أعتقد ، وبكل اقتناع ، أن الذين يصرون على تحويل المعرفة الدينية إلى حقل اختصاص مهني هم تجار يشتغلون في السوق ويعرفون قوانين السوق .. إنهم لا يريدون اتساع نطاق المعارف الدينية حتى لا تنشأ عقول تعرف دينها فيزداد عدد العارفين بالدين على حسابهم .. المسألة – إذاً – قوانين عرض وطلب.

نحن نكره الاحتكار حتى في المهن التخصصية ، على الرغم من أن المهنة تقوم على تخصص .. ومع هذا فإن الاحتكار مكروه لأننا نريد عدداً كبيراً من الأطباء والمستشفيات والمهندسين وشركات الخدمات الهندسية حتى يتحسن كمّ ونوع عرض الخدمات .. فكيف يجوز لهم أن يمارسوا احتكار« مهنة » تتعلق بالعقل والقلب والضمير .. تتعلق بفهم القرآن ، ولذلك نحن نرفض تحويل القرآن والإسلام إلى مهنة .. ناهيك عن تحويلهما إلى مهنة خاضعة للاحتكار!

الدين مجال واسع يجب أن يبقى مفتوحاً .. وأية محاولة لإغلاق هذا المجال تعني في نهاية المطاف إغلاق العقل وقد حدث نتيجة لذلك إغلاق باب الاجتهاد .. وأدى ذلك بالضرورة إلى كارثة إنسانية وحضارية كبرى لأن إغلاق باب الاجتهاد كان الوجه الآخر لإغلاق العقل ، وأحد أسباب تراجع الحضارة العربية والاسلامية .

ما معنى إغلاق باب الاجتهاد ؟ .. معناه أن على المسلم أن يمارس العبادات والمسؤوليات الدينية دون أن يسأل عن السبب أو الحكمة .. بمعنى أن كل ما ينبغي عليه القيام به هو تقليد شيخه .. وتصديق ما ينقله اليه الرواة والفقهاء من روايات وقصص وإخباريات وخرافات والتعامل معها كنصوص مقدسة ترقى الى مرتبة القرآن .. بل وتنسخ بعضه وتضيف اليه وتشاركه في أحكامه .. وهذا هو الشرك بعينه.. كما يعني هذا أن أمة محمد يجب أن تعطي عقلها إجازة لمدة ألف عام .

الحبيشي : أستاذ جمال .. عندما زرتك في منزلك بالعباسية وترددت عليك عدة مرات على امتداد العقد الأخير من القرن العشرين المنصرم ، لاحظت حبك الكبير لأخيك الأكبر حسن البنّا .. لاحظت كيف تحتفظ بكل صغيرة تتعلق بأخيك حسن ووالدك أحمد البنّا الساعاتي رحمهما الله .. لا شك في أن ما شاهدته في منزلكم المتواضع بحي العباسية في شارع الجيش ، الذي يربط بين شمال القاهره ووسطها النابض بالحياه والحركة في شارع الأزهر ، يعكس وفاءك للعلاقة الإنسانية التي ربطتك بأخيك الأكبر حسن البنّا.

أنا شخصيا أعتبر حسن البنّا قائدا سياسيا فذا ومتميزا ترك بصماته على تاريخ الأمة العربية والإسلامية الحديث .. ما من شك في ذلك .. لكن حسن البنّا، الذي وصفته قبل قليل بأنه لم يكن أزهرياً ولم يكن يلبس عمامة ولم يكن خريجاً جامعياً ، بل كان يرتدي الطربوش التركي والبدلة والكرافتة الإفرنجية .. حسن البنا هذا كان مثقفا وكانت لديه أفكار تؤهله لأن يكون مشروع مفكر، ولكنه رغم ذلك كله كان سياسياً .. كان زعيماً سياسياً .. سيرته السياسية تشير إلى أنه كان يمارس السياسة كأي سياسي، باعتبار أن السياسة هي فن الممكن .. وأن السياسة متغيرة وليست ثابتة .. وأن السياسة – أيضاً – لها وسائلها التي تنزع أحياناً نحو المرونة أو استخدام الحيلة والمناورة والخداع عند الضرورة .. وهذه الأساليب قد تكون مشروعة في السياسة ولكنها ليست مشروعة في الدين .. مشروعة في السياسة العملية .. وليست مشروعة في الإسلام الذي يحزننا أن يتحول اليوم إلى إسلام سياسي .

الخداع والمكر مبادئ أساسية في أي حرب .. والسياسة والحرب وجهان لعملة واحدة .. ولأن الحرب هي أحد أشكال السياسة .. فقد تحالف حسن البنّا مع عزيز صدقي ثم انقلب عليه بعد ذلك .. تحالف مع القصر واختلف معه .. تحالف مع النحاس باشا واختلف معه .. هاجم الوفد ثم اقترب منه .. أنا لا أرى عيباً في هذه المواقف السياسية المتناقضة لحسن البنّا السياسي وليس حسن البنا الذي جعلوا منه شيخاً وإماماً .. هذا التناقض ليس عيباً .. لأن حسن البنّا كان سياسياً بامتياز. قبل قليل سمعتك وأنت تحذر قوى الإسلام السياسي من المراهنة على استخدام سلطة الدولة لتطبيق الشريعة .. قلت لي إن الدولة تفسد الشريعة .. بمعنى أن سلطة الدولة تدخل في المجال السياسي الذي لا يجوز إضفاء القداسة عليه .. ولأنها كذلك فهي غير مؤهلة لأن تكون وسيلة لتطبيق الدين بما هو مقدس .. وليست مؤهلة ايضا لحراسته في الوقت نفسه على نحو ما يدعو إليه كهنة وملالي أحزاب وجماعات الإسلام السياسي.

ما رأيك – يا أستاذي الكبير – في الذين يقولون إن حسن البنّا كان يمارس السياسة من منظور ديني وليس من منظور سياسي؟ .. وبالنظر إلى ما شاهدته في منزلك بالعباسية من مظاهر وفاء عظيم لتراث أخيك الأكبر، فأنا أعتقد أنك أكثر الناس تأهيلاً للحديث عن هذا الجانب؟

البنا : شوف يا أخي.. هناك شيء مهم ربما أنت لا تعرفه .. فقد توافرت للأستاذ حسن البنّا من فرص التربية ومواهب الذكاء وعمق الثقافة وصدق الإيمان، ما لم يتوافر لأي زعيم ديني أو سياسي آخر .. هذه الصفات كانت السبب الرئيسي في نجاح حسن البنّا سواء من الناحية الجماهيرية أو من ناحية قدرته على تقديم الإسلام للناس كمنهج حياة .. وكانت السبب ايضاً في اغتياله.

أجاد حسن البنا صياغة الشعار السياسي الذي يخاطب الجمهور في ظروف محددة .. انظر إليه وهو يخاطب الناس «الله غايتنا والقرآن دستورنا والرسول زعيمنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا » .. الشعار سهل وبسيط ولا يحتاج إلى شهادة جامعية أو عمامة أو تخصص لصياغته ومخاطبة الناس به .. ولذلك نجح حسن البنا في اجتذاب جمهور عريض اقتنع بهذا الشعار الذي قدم الإسلام بصورة سهلة ومفهومة .. بهذا الشعار تمكن حسن البنا في الجانب الديني، من دفع دماء جديدة في جسد السلفية والصوفية المترهل .. نجح في تقديم سلفية جديدة حسنة إلى حد كبير جداً. كسياسي استفاد حسن البنّا من هذه السلفية واستطاع – أيضاً – أن يضفي لمساته الخاصة عليها وإيجاد نوع من التواؤم والمرونة مع العصر.. ولكن كانت هناك قوى تتحكم في مسار حسن البنا أبرز هذه القوى هو ما يطلبه الجمهور.

مشكلة أي زعيم جماهيري هي الكاريزما .. هذه الكاريزما تجعله بقدر ما يحكم جمهوره بقدر ما يحكمه جمهوره أيضاً. أزعم وأقول : إن حسن البنا شأنه في ذلك شأن أي زعيم جماهيري كان مسكوناً بمشكلة حادة وهي شعور الزعيم الكاريزمي بأنه لو سبق هذا الجمهور .. لو تغلب ذكاؤه على طريقة تفكيره وعمله وسبق هذا الجمهور، فإن الصلة بين الزعيم وجمهوره ستنقطع .. ولذلك يبقى الزعيم على مسافة قريبة جداً مما يطلبه الجمهور، ويحرص على أن تكون مخرجات خطابه الموجه إلى الجمهور بحسب احتياجات هذا الجمهور .. إنها مشكلة تتعلق بالمجال السياسي عندما يكون الزعيم سياسيا، فيما يكون نطاق اشتغال المفكر في مجال الفكر.. ولكن حين يكون السياسي منتجا للفكر ومشتغلا فيه يدخل في مأزقه الخاص ، بالإضافة إلى مأزق السياسة .. أما حين يكون هذا الزعيم دينيا فإن الدين يصبح مشكلة وليس حلا في لحظة كهذه .. لأن الدين هنا يختلط بمأزق السياسة وبمأزق الكاريزما في آن واحد.

لنستحضر التاريخ قليلا.. كان عمر بن الخطاب في بعض الحالات يعزل والياً لأنه كان يمارس مسؤولياته ويحكم الناس على فضل عقله .. كان بعض الولاة لديهم قدرات عقلية وذهنية لا يستوعبها الناس بسهولة .. « العوام بلغة أيام زمان » والجماهير بلغة هذه الأيام .. إذا أراد أن يحكمها بمعايير تفكيره وعقله سيقع في مشكلة مع الجماهير .. الزعيم الجماهيري يختلف عن المفكر الذي يشتغل في مجال النظريات وعالم المبادئ .. ليست هناك قوة تجعل المفكر خاضعا لاعتبارات معينة ، ولكن الزعيم الجماهيري لابد أن يخضع لمستوى تفكير جمهوره .. ولذلك كان حسن البنا يصوغ شعارات سهلة وعميقة في آن واحد .. كان يتدرج في خطابه العام ويجمع بين التدرج والبساطة والعموميات والثوابت .. بالإضافة إلى كل ذلك كان مشروع حسن البنا ينتقل بثبات من مرحلة الحشد إلى مرحلة الفرز ثم إلى مراحل أخرى لاحقة.

استمرت دعوة حسن البنا عشرين عاماً من عام 1928م إلى عام 1948م، وعندما قتل في أوائل عام 1949م كان قد عمل نقلة كبيرة وهائلة في حركة الإخوان المسلمين التي ظهرت عام 1928 م كطريقة صوفية لقد عايشت البدايات بنفسي شخصيا كتلميذ في السنة الابتدائية الأولى بمدرسة الإسماعيلية.

كان الإخوان المسلمون يضعون أوسمة خضراء على صدورهم وينشدون أناشيد دينية ويقيمون ما تعرف عندنا في مصر «حضرة» .. انضم الأستاذ حسن البنا إلى التصوف في مرحلة المراهقة والشباب الأولى ، واستفاد منها.. لكنه تنبه إلى ما فيها من نتوءات دخلتها وأفسدتها.

استفاد حسن البنّا من الروح التربوية التي يقوم عليها التصوف .. وعندما أسس جماعة الإخوان المسلمين كانت بدايتها أقرب إلى الطريقة الصوفية حتى وصلت بعد عشرين عاماً إلى دعوة سلفية عالمية تقدم الإسلام كمنهج سياسي وثقافي للحياة خلال عشرين عاماً فحسب.

بكل صدق وبكل ثقة أقول : لو عاش حسن البنّا عشرين عاماً أخرى لحدث تطور نوعي في فكر الإخوان بما يماثل التطور الذي حدث في العشرين السنة التي عاشها قبل اغتياله عندما تحولت من طريقة صوفية إلى دعوة سلفية عالمية .

الحبيشي (مقاطعاً) : ولكن البداية في أساسها كانت سياسية .. والنهاية هنا هي من جنس البداية .. أي ان تكون سياسياً فلابد أن تعرف أن للسياسة مناوراتها التي تكون احياناً غير اخلاقية ومخادعة ، ما يستوجب حماية المقدس منها وعدم ربطه بالسياسة حتى لايتدنس بسلبياتها.

البنا : كان الوعي السياسي للإخوان المسلمين ساذجاً جداً ولم يكن بالصورة التي ذكرتها يا أخي، مع الأخذ بعين الاعتبار انني أتفق معك فيما ذكرته.. كانوا يقولون وقد سمعت شقيقي حسن البنا رحمه الله أكثر من مره وهو يقولها لو كانت عندي دعوة مستباحة لدعوتها للسلطات لأن الله يصلح بصلاحها خلقاً كثيراً.

لم يكن الإخوان ثوريين قطعاً .. فمن يقرأ خطاب الإخوان الديني والسياسي سيلاحظ ثمة تمييز بين القوة التي هي من خصائص الإسلام والثورة بما هي أسلوب لا نلوح به إلا للتغيير.. ولو لجأنا إليها التضخم ، تجد نفسها متورطة سواء أرادت أو لم ترد في الشأن العام .

الحركة النقابية على سبيل المثال عندما نشأت في انكلترا كانت بدايتها مهنية فنية بحتة .. وكان من تقاليد الحركات النقابية في بريطانيا ـ والتي انتقلت إلى الحركة النقابية في مصر خلال الأربعينيات ـ ان النقابات لاتشتغل بالدين أو السياسة .. بل تنحصر في القضايا المطلبية التي تتعلق بتحسين ظروف العمل والعلاقة بين العمل ورأس المال.

كانت النقابات في بدايات تأسيسها مهنية وتستخدم وسائل وأساليب مهنية لبلوغ أهدافها ومن هذه الوسائل: الاضراب، العمل البطيء، المقاطعة.. الخ.. لكن هذه النقابات وجدت نفسها متورطة في العمل السياسي بعد ان تضخمت.

لماذا حدث هذا؟.. حدث ذلك لانها وصلت إلى درجة كبيرة من النجاح«اولاً» والتضخم «ثانيا» فانفتحت شهية الأحزاب السياسية لاستلابها والفوز بها وتوظيفها واستخدامها في أجندتها السياسية .. وبتأثير هذه الشهية المنفتحة من قبل المجتمع السياسي تجاه النقابات أصبح عليها إما ان تتبع الاحزاب أو تقاومها .. وكلا الاثنين " التبعية أو المقاومة "خياران سيئان.

الإخوان المسلمون وصلوا إلى درجة كبيرة من التضخم .. وبسبب هذا التضخم اللا محدود أصبح مصيرهم مقضيا عليه شاؤوا أم لم يشاؤوا .. وجد الإخوان المسلمون أنفسهم وسط معمعة السياسة بكل تفاصيلها وقذارتها وأحزانها وهم يحملون خطاباً دينياً سهلاً ومبسطاً عبر عنه مرشدهم ومؤسسهم بذلك الشعار الذي اختاره الإخوان عنواناً لقضيتهم .

الحبيشي (مقاطعاً) : ولكن البداية في أساسها كانت سياسية .. والنهاية هنا هي من جنس البداية .. أي ان تكون سياسياً فلابد أن تعرف أن للسياسة مناوراتها التي تكون احياناً غير اخلاقية ومخادعة ، ما يستوجب حماية المقدس منها وعدم ربطه بالسياسة حتى لايتدنس بسلبياتها.

البنا : كان الوعي السياسي للإخوان المسلمين ساذجاً جداً ولم يكن بالصورة التي ذكرتها يا أخي، مع الأخذ بعين الاعتبار انني أتفق معك فيما ذكرته.. كانوا يقولون وقد سمعت شقيقي حسن البنا رحمه الله أكثر من مره وهو يقولها لو كانت عندي دعوة مستباحة لدعوتها للسلطات لأن الله يصلح بصلاحها خلقاً كثيراً.

لم يكن الإخوان ثوريين قطعاً .. فمن يقرأ خطاب الإخوان الديني والسياسي سيلاحظ ثمة تمييز بين القوة التي هي من خصائص الإسلام والثورة بما هي أسلوب لا نلوح به إلا للتغيير.. ولو لجأنا إليها ستكون طريقتنا مختلفة ونتائجها مختلفة وهو ما ينطبق على قولك النهايات من جنس البدايات. كان الإخوان يعتقدون بسذاجة سياسية أنهم بقدر ما يسعون إلى السلطة بقدر ما ستسعى السلطة اليهم وإلى التحالف معهم .. وعند هذه النقطة سيبدؤون عملية احتواء الحكم والسلطة والتسرب إلى داخل مفاصلها واجهزتها والإستيلاء عليها بدون خسائر أو تضحيات كبيرة. ولذلك.. ومن أجل الاستيلاء على الدولة التي يتصورون انها ضرورية لتطبيق الشريعة وحراسة الدين كان لابد لهم من المشاركة في العمل السياسي بصورة أو بأخرى.

كان لديهم تصور ساذج في تحالفاتهم السياسية يتمحور حول مدى قرب أو بعد أي سياسة يضعها أي حزب من الإسلام أو بتحديد أدق من تصورهم وتفسيرهم وتأويلهم للإسلام. احياناً يضطر حزب سياسي بعقلية ماكرة تضمين خطابه السياسي لمسة ذكية تقترب من الإخوان فنجدهم يشكرونه.. واحيانا يتصورون ان ثمة خطابا سياسيا يفسر الإسلام بغير ما يفسرونه فيلجأون إلى التنديد به ومعاداته.

كانوا يقدمون للملك الشكر والنصائح باعتباره ولي امرهم .. هكذا هو معتقدهم و تصورهم الأساسي للعلاقة بين الشعب والحكم .. والمشكلة انهم موجودون بين صفوف الشعب الذي هو طرف في النزاع مع نظام ا لحكم. كان موقف الإخوان من الاحزاب غير واضح ..الاحزاب هي جزء من المجتمع في صراعه مع نظام الحكم.. الاحزاب تنطلق من الدستور ومن موقف المجتمع من السلطة.. بمعنى ان الاحزاب تعتبر نفسها باستثناء حزب أو أحزاب السلطة ـ وهذه وظيفتها ـ انها معارضة للسلطة.. والاخوان يرفضون مبدأ المعارضة ويقولون بالمناصحة لانهم يؤمنون بواجب طاعة ولي الأمر لا معارضته.. لهذا كان موقف الإخوان من احزاب المعارضة مبهماً ومموهاً وغير واضح. هذا لاينفي وجود اخطاء لدى الاحزاب بل وتشوهات.. فالاحزاب كانت غارقة في بحر التعصب الحزبي .. الوفدي كان يحرص على أن تكون زوجته وفدية وعائلته وأولاده وفديين.. كان الوفديون يقولون لو رشح الوفد حجراً لانتخبناه وكانوا يقولون : « الاحتلال على يد عدلي افضل من الاحتلال على يد صدقي » الذي أيده الإخوان المسلمون .. لم يكن الإخوان يؤمنون بان السياسة تقتضي اتباع خط واحد لايتغير ولا يتعرج ولا ينحني .. انت مضطر على الطبيعة وعلى الأرض ان لا تسير في طريق واحد على طول الخط بدون ان تضطر إلى التعرج في منحنيات ومنعطفات .. لانك اذا لم تقم بذلك قد تصطدم بجبل أو تل من الرمل أو حاجز أو حائط أو ما شابه ذلك من العوائق الطبيعية أو غير الطبيعية التي قد تجدها في طريقك .

كنت أسمع حسن البنا يقول لرفاقة ان كل واحد منا يجد نفسه احياناً مضطراً وهو يقود سيارته للف والدوران والانعطاف نحو اليمين أو اليسار من أجل الوصول إلى هدفه ومواصلة طريقه بدون حوادث وانجاز عمله بسلام .

هذه كانت طريقة تفكير الإخوان في مجال السياسة ولعلها طريقة واقعية من وجهة نظرهم تبرر لهم التحالف مع هذا الحزب أو هذه الحكومة اليوم ، ثم الاختلاف معها غداً.

عندما كان الأستاذ البنا يمارس هذا النوع من السياسة مع الاحزاب تعرض للنقد من خصومه الذين كانوا يصفون سياسته بالانتهازية أو التلون .. لكنه كان لايعبأ بهذه الانتقادات لانه كان يؤمن بانه يطبق مبادئ الإسلام التي يحكم من خلالها على مدى قرب هذا الحزب أو هذه الحكومة أو هذه السياسة من الإسلام .. وأعتقد أن حسن البنا لو عاش طويلاً لاحدث تغييراً في العقل السياسي السائد آنذاك وكان من شأن ذلك عدم الحاجة لقيام حركة 23 يوليو.. بل عدم استمرار الاخوان المسلمين على نحو ماهم عليه الان.

الحبيشي : ولكن حسن البنا والإخوان المسلمين لايحتكرون تمثيل الإسلام والوصاية عليه حتى يقررون ان هذا الحزب أو ذاك قريب من الإسلام أم لا؟

البنا : المشكلة ليست في الإخوان بحسب تقديري .. بل ان الإخوان وجدوا انفسهم في بيئة شمولية بغطاء ديمقراطي يدعي كل طرف فيها الوصاية على الاخرين وتمثيل الحقيقة. القصر بعد سقوط الخلافة كان يتطلع لوراثتها وكان يعتقد بأنه وصي على الأمة.. الوفد منذ ثورة 1919م ظل يعتقد بأنه الحزب الوحيد الذي يمثل الأمة رغم ان الوفد تعرض لانشقاقات وخلافات عديدة ولم يعد مثلما كان أيام سعد زغلول .

الوفد ذاق المر عندما وجد الإخوان يمثلون كتلة كبيرة ومنافسة في مجال التمثيل الشعبي .. لان المسألة هنا تتعلق بالانتخابات التي هي بحسب دستور 1922م الوسيلة الوحيدة للوصول إلى سدة الحكومة والسلطة التشريعية.. ومن هنا بدأت لعبة الاستقطابات بينه والإخوان وسائر أطراف الحكم.

الحبيشي : استاذ جمال .. لاحظت انك استغرقت في التفاصيل على حساب القضية الرئيسية وهي التأثير السلبي الذي لعبه الربط بين الدين والسياسة على مصير الاخوان الذي انتهى إلى ما انتهي اليه تصريح الأمير نايف بن عبدالعزيز في عام 2004 على إثر تزايد خطر جماعات الإسلام السياسي السلفي على الدولة والمجتمع في السعودية.. أي تحميل الاخوان المسلمين مسؤولية الكوارث التي حلت بالعالم العربي والإسلامي بحسب قوله ؟

البنا : دعك من كلام الأمير نايف لاني لا اثق في كلام وزراء الداخلية .

الحبيشي : ولكني يا أستاذ جمال اسألك عن تداعيات الربط بين الدين والسياسة وتأثيرها على مسيرة الإخوان.. بل وعلى المصير الذي انتهوا إليه؟

البنا : (يبتسم ثم يقول) : أريد أن أقول لك شيئاً له مغزى عميق .. أتذكر أن الأستاذ حسن البنا سعى إلى تأسيس فرع للإخوان المسلمين في السعودية أيام الملك عبدالعزيز آل سعود .. وكما هو معروف فأن الملك عبدالعزيز كان داهية وسياسيا ذكيا .. ولما عرف بنوايا حسن البنا ومساعيه هناك عندما زار السعودية لاداء فريضة الحج ، استدعاه وقال له : « ياشيخ حسن نحن جميعاً إخوان و مسلمون»،، لاحظ الفرق بين منطق الأب عبدالعزيز الذي هو «الملك » أي رأس نظام الحكم .. وبين منطق أبنه نائف الذي هو وزير داخلية مهمته حماية نظام الحكم .

الحبيشي : (مقاطعاً) : مع احترامي لك يا أستاذ جمال الاحظ من إجابتك ان روابط القربى ومشاعرك العاطفية نحو اخيك اصبحت تؤثر على مسار الجواب.. ولكن حسناً .. لتكن من محبي أخيك ومريديه.. ما رأيك في الذين يتهمونك بانك تغرد الآن خارج سرب الإخوان.. خارج سرب الإسلام السياسي الذي يحمل رايات أخيك حسن البنا؟

البنا : أنا لا أغرد خارج سرب الإخوان الآن.. أنا أغرد خارج هذا السرب من زمان.. والدليل على هذا كما قلت سابقاً انني قمت بتأليف كتاب عام 1946م دعوت فيه إلى الديمقراطية التي لم يكن الإخوان المسلمون يؤمنون بها.. ولم يعلنوا التزامهم بها الا في وقت قريب عندما سدت امامهم كافة فرص التعبير عن وجودهم السياسي ووجدوا ان الديمقراطية التي لم يكونوا يؤمنون بها هي وحدها التي تخدمهم الآن وتيسر لهم فرص القفز الى السلطة . في عام 1946م أسست ايضاً حزبا اسمه حزب العمل الوطني الاجتماعي .. وعندما انضم الشيخ خالد محمد خالد إلى الإخوان المسلمين أعلن أن أكبر شيء أدهشه هو انه وجد الشقيق الأصغر لمؤسس الإخوان خارج هذا السرب ويؤسس حزباً معارضاً للإخوان.. لم يكن هذا العمل يغضب الأستاذ حسن البنا رحمه الله .

كان حسن البنا يبتسم عندما يطلع على كتاباتي آنذاك ، ولم يكن أحياناً يخفي اعجابه .. اتذكر ايضاً ان الأستاذ عبدالعزيز الخياط والذي اصبح في يوم من الأيام وزيراً في الاردن كان في الأربعينات يدرس في الأزهر.. في تلك الفترة صدر لي كتاب أسمه ((على هامش المفاوضات)) فدخل على الأستاذ حسن البنا وقال له مبتسماً : تعلموا نصف سياستكم من هذا الشاب ياشيخ حسن .. فرد عليه قائلاً : جمال ليس أخي فقط انه رفيقي في الدين وخصمي في السياسة ايضاً حتى وان كان في حزب آخر.

اتذكر ان حزبنا اصطدم بالشرطة في عام 1947م .. وبسبب ذلك تم اعتقالي وتعرضت للتعذيب وبعد اطلاق سراحي لاحظ حسن البنا حالتي فقال: انت تقوم بمهام صعبة ودور جليل ولكن حزبكم ضعيف وليست لديه الامكانيات والقدرات التي تؤهله لاعمال صعبة ، بينما نحن عندنا حدائق واسعة ثمارها ممتازة .. ولكثرة هذه الثمار تسقط ولا تجد من يأخذها ويقدمها للناس المحتاجين الذي هو الشعب .. فلماذا لا تنضم بحزبك إلى الإخوان وتتمتعون بثمار الإخوان؟

على الفور أجبته على سؤاله قائلاً : ثمار الإخوان بلا طعم .. وعلى الرغم من قسوة الإجابة فقد استقبلها الشيخ حسن البنا بترحاب .. لكنه اقترح علينا تحويل حزب العمل إلى جماعة حتى لانصطدم بالسلطات.. وفعلاً اخذت باقتراحه وحولنا حزب العمل الوطني الاجتماعي إلى جماعة العمل الوطني الاجتماعي.

الحبيشي : بما اننا الآن نعتبر هذا الحوار امتداداً لحوارنا السابق على امل نشر الحوارين معاً في كتاب أن شاء الله فمن المناسب ان اشير الى قضية تفسير القرآن التي قلتم في الحوار السابق انها مشكلة معقدة حيث اصبحنا نحتكم إلى تفسير القرآن ولا نحتكم إلى القرآن نفسه.

البنا (مقاطعاً) : ليست المشكلة في القرآن ولا في تفسير القرآن .. نحن في المرحلة الراهنة لدينا مشكلة أكبر هي تثوير القرآن .. وقد نشرت مؤخراً كتاباً جديداً بعنوان "تثوير القرآن" !

الحبيشي (مستغرباً) : تثوير القرآن !!

البنا : نعم تثوير القرآن .. لماذا تستغرب ذلك ؟

الحبيشي : الا تعتقد ان اطروحة تثوير القرآن قد يفهم منها التدخل في القرآن نفسه.. بمعنى دخول منطقة محظورة وملغومة ، خصوصاً وأنّ القرآن الكريم هو الذي يوحد كافة المسلمين .. ولا يوجد خلاف عليه أو معه بعكس الأحاديث والروايات التي نسبها الرواة والوضّاعون إلى النبي عليه الصلاة والسلام تحت مسمى السنّة ؟

البنا : تثوير القرآن كلمة مشتقة من حديث نبوي « ثوروا القرآن» أو اثيروا القرآن.. وجاءت كلمة إثارة في القرآن ايضاً.

الحبيشي (مقاطعاً) : أستاذ جمال لنكن حذرين.. ربما يكون هذا الحديث ضعيفاً .. وربما يكون من طراز أحاديث أبي هريره و عكرمة والأوزاعي ووهب بن منبه وكعب الأحبار.. ومع الأسف اصبحنا لا نعطي قيمة للمتن بل نركز كل تفكيرنا على السند ومدى صحته .. أصبح المعيار لقياس صحة أوعدم صحة الأحاديث والروايات هو السند وليس المتن.. ولذلك حتى ولو كان السند صحيحا فانا اشعر بان متنه ضعيف .. وبالتالي لا بد من عرض هذا الحديث على القرآن أولاً ثم فحصه بميزان العقل بعد ذلك .

البنا : في معجم بحار الأنوار وهو كتاب يشبه معجم الاحاديث ورد تحليل لكلمة « ثيروا » و«ثوروا » (بتشديد وكسر الواو) بمعنى تعمقوا .. وفي شرح هذا الحديث « اثيروا القرآن أو ثوروه » جاء ان المقصود به هو تقليب معانيه مثلما يقلب الفلاح الأرض ويستأصل منها الأعشاب الضارة.. ربما يكون هذا هو المقصود من كلمه « ثوروا القرآن » وليس بمعنى الثورة الفرنسية أو الثورة الاشتراكية .

الحبيشي : ليكن ذلك.. كيف تقرأ القرآن برؤية جديدة تثوره وتثيره بحسب هذا الحديث إن كان صحيحاً ؟ .. ولنكن واقعيين ـ يا أستاذ ـ فنحن بحاجة إلى قراءة جديدة للقرآن وبتعبير أدق إعادة قراءته وإعادة تفسيره في ضوء متغيرات العصر والاسئلة التي تطرح الآن. بلا شك أن الاسئلة التي تطرح الان لاتشبه تلك الاسئلة التي كانت تطرح في عصرالإمام الشافعي وأحمد بن حنبل ومالك وأبو حنيفة وجعفر الصادق وزيد بن علي .. انها اسئلة جديدة من نوع مختلف عن تلك الاسئلة التي طرحت أمام اولئك الفقهاء واجتهدوا في فهم القرآن والرد على تلك الاسئلة.

في الوقت الحاضر أمامنا اسئلة جديدة تتطلب في تقديري قراءة جديدة للقرآن بمعنى قراءة معاصرة تستوعب متغيرات وحقائق العصر وليست مغتربة عنه مع الاخذ بعين الاعتبار ان كل من يتقدم بخطوة قصيرة على هذا الطريق يتعرض فوراً لهجمة شرسة من شيوخ التكفير والتشكيك .. هل حدث لك شيء من هذا بعد صدور الكتاب من قبل امراء الظلام وشيوخ التكفير والتشدد؟

البنا : نعم حدث شيء من هذا القبيل ولكني لم اهتم به كثيراً.. القرآن ياعزيزي قبل كل شيء هو كتاب هداية أراده الله لتغيير حياتنا .. أي بالتعبير السياسي المعاصر لإحداث ثورة في حياتنا .. اراد الله ان ينقل المجتمع من وضع إلى وضع جديد مختلف تماماً .. القرآن موجه للناس وهم بالتعبير السياسي المعاصر الجماهير التي تقوم بالثورة .. القرآن قدم عقيدة متكاملة وهي النظرية بالتعبير السياسي لمعاصر .

لدينا في منهج القرآن ثلاثة عناصر: التغيير، الجماهير، والعقيدة.. في اطار هذه المتظومة تتجه العقيدة إلى الجماهير التي تقوم بعملية التغيير.

ماحدث عند نزول القرآن وظهور الإسلام ثورة بكل المقاييس .. في البداية تم احداث التغيير في بيئة المجتمع داخل شبه جزيرة العرب.. تحول المجتمع الجاهلي إلى مجتمع اسلامي.. انتهى المجتمع الجاهلي الذي كان يقوم على الربا واحتقار المرأة والظلم والتعصب القبلي والحروب القبلية.. كانت المرأة تتعرض للقتل و " الوأد " وهي رضيعة.. وأذا كبرت كانت تحرم من الميراث .. كل ذلك انتهى .. وبعد زوال المجتمع الجاهلي في الجزيرة العربية انتشر الإسلام بنموذجه وجاذبيته بقوة ثورية إلى البلدان الأخرى .. أي اننا كنا أمام عملية ثورية شاملة خرجت من نطاقها الجغرافي المحلي إلى المجال الكوني الواسع .. كل ذلك تم بفضل وهج القرآن.. والمطلوب منا الان هو إعادة اكتشاف تلك الصورة من خلال التعمق في الابعاد الثورية للقرآن .. هذا هو المقصود في تثوير القرآن .. ولعله المقصود في حديث " اثيروا القرآن " أو "ثوروا القرآن " .. والله اعلم .

(يتبع الاحد القادم)

نقلاً عن النسخة العربية من / Middle East Transparent

سلطة الدولة ليست مؤهلة لتطبيق الشريعة والتصور الذي تدعو إليه أحزاب وجماعات الاسلام السياسي لبناء الدولة الاسلامية هو التصور نفسه الذي فشلت فيه الأحزاب الاشتراكية والقومية حين تصورت ان الدولة الاشتراكية هي التي تحقق العداله الاجتماعيه وتقضي على الفقر.. وأن الدولة القومية هي التي تحقق الوحدة القومية.. فكانت النتيجة فساداً وظلما وفقراً في الأولى وديكتاتورية وتمزيقا للصفوف وإحياءً للنعرات المناطقية والطائفية والعشائرية بين أبناء الشعب الواحد، في الثانية .. وقبل الدولتين الاشتراكية والقومية فشلت دولة الخلافة الإسلامية ودول ملوك الطوائف على أطرافها وسقطت نهائيا.

الإخوان المسلمون لم يؤمنوا بالديمقراطية.. ولم يعلنوا التزامهم بها الا في وقت قريب عندما وجدوا ان الديمقراطية هي وحدها التي تخدمهم الآن وتيسر لهم فرص القفز الى السلطة وتصفية خصومهم بعد ذلك .